ردّة الفعل الثقافية

أمام انتشار وبداية ظهور سلبيات «العولمة» كمشروع مركزي وحيد القطب بالمنظور الأمريكي، أو متعدّد الأقطاب بمنظور الكيانات العالمية الكبرى التي تريد المشاركة الفعّالة في توجيه القطار لا مجرّد ركوبه.

وقد كتب الكثيرون عن ردّة الفعل التي أحدثها التوجّه العالمي نحو المادية العالمية باسم العولمة وعن الفئات الثلاث التي وقفت في هذا المشروع لكونها المتضرّر الأكبر من تطبيقه ونجاحه، وحصروا هذه المجموعات الثلاث في:

١ــ فئة المتأثرين اقتصادياً بظهور الشركات العالمية، وهم العمّال المنظمون الذين يرفعون شعار «عاشت الحدود» لكون بعض الصناعات المحلية لا يمكن أن تحافظ على نفسها إلاّ في مجال مكاني محدود وقد ظهر هذا جلياً في «سياتل».

٢ــ فئة السياسيين الذين يرون يومياً تنامي سلطة الاقتصادي في انكماش سلطتهم حتى صار بإمكان مضارب عالمي واحد أن

يحدث رجّة في اقتصادات بلدان برمّتها.

٣ــ فئة البيئيين الذين يرون في الهوس التفجيري لموارد الكون عالمياً وبدرجة قصوى إهلاكاً للبيئة.

والقليل فقط من تجاوز هذه الفئات الثلاث ليتحدّث عن فئة «الثقافيين» الذين تحدث ردّات فعلهم باسم الدّين والأخلاق والهوية..

إنّ الحديث في التكنولوجيا هو ذاته الحديث عن الثقافة، وبعد اندماج المجتمع في «المجرى» التكنولوجي بقدر ما يكون تأثره الثقافي، لذلك يُمثّل الرّفاه الذي يعيشه المجتمع الخليجي درجة عالية في التقاء الإنسان بالثقافة الماسخة.. إنّ الثقافة والحال هذه لا تتعرّض لضربة مباشرة كتلك التي كانت تتلقاها في زمن الطمس الثقافي المباشر كالتنصير في ظلّ الاستعمار الغربي، لذلك يكون الأمر خالياً من ردّة فعل مباشرة وآنية من طرف الثقافة.

إنّ التكنولوجيا لا تستأصل الثقافة الذّاتيّة كما حاول فعل ذلك الاستعمار القديم الذي يغزو الأرض ويقنّن حياة أهلها.. وبالتالي فغير ممكن الحديث عن اقتلاع أو تهجير ثقافي كما لا يمكن الحديث عن تطبيع قسري أو قهري، ذلك لأنّ «التطبيع القسري» كما يرى باستيد Bastide يحدث تحت تأثير جماعة ضاغطة تهيمن

على جماعة أخرى، والوضعية الاستعمارية هي التّعبير النموذجي لعملية التطبيع القسري.

إنّ الاستلاب الذي تحدثه التكنولوجيا هو استلاب غير مبرمج، لذلك لا يتفطّن له، إنّه عندي تماماً كذلك الاستلاب الذي تحدثه المدنية في «بدويّ شاب»، وحينما يتعرّض الشاب البدوي المحافظ لمطلب المدينة وبهارجها ويخضع لذلك، فإنّه لا يحسّ بعملية الامّحاء الأخلاقي الذي يحدث في ذاته، لأنه يرى العملية مجرّد توافق وتلاؤم ماديّ مع الوضع الجديد، لكنّه بخلعه مثلاً القميص «التراثي» للبس سروال «الجنز» الضيّق يكون قد فقد شيئاً ما من أخلاقياته وأحاسيسه وجزء من خجله. إنّ هذا هو الذي تحدثه العولمة بالضبط، إنّها تقتل روحانية الأشياء بطغيان المادية، وهي لا تقصد إهدار الأخلاق لكنّها تهدرها بالضرورة.. تماماً كما لا تقصد المدينة قتل الحشمة والأحاسيس الشفافة للبدوي، لكنّها تفضي إلى ذلك بمتطلّباتها. إنّ الخشوع في العبادة لا يتساوى بين مغارة مقرورة مظلمة موحشة، وقصر عاجي مزدان بالكريستال والثّريات والرّياش..

إنّ هذا يفضح خطر المادية التي تغزو المجتمعات عبر إسقاط الحدود بالليبرالية التجارية التي أسّست لها «الفات» وكرّستها

«المنظمة العالمية للتّجارة»، وهو ذات الخطر الذي يظنّ البعض أنه من جرّاء حرب صليبية أو ثقافية أخرى مقصودة ومبرمجة.

إنّ الوضع المادي لإنسان الخليج، يجعله عرضة للمادة أكثر، ولا يجوز الحديث في موضوع «تقاطع البشري بالمادة» أو التقائه بها عن «الانفتاح» على التكنولوجيا الذي يتحدّث عنه البعض في كتاباتهم.

إنّ ذكر الانفتاح على ثقافة الآخر معناه أنّ عقلية الكاتب مازالت تنطلق من واقع العقود القديمة، و لم تستوعب بعد واقع المرحلة.. مرحلة النظام العالمي الجديد..

إنّ التكنولوجيا قد انتشرت اليوم انتشاراً مريعاً عبر اختراق للكيانات وتخطّ للحدود، وهي التي تصبّح الإنسان وتمسّيه في داره، وآنذاك فالحديث يجب أن يكون عن تقبّل أو اقتناء التكنولوجيا فقط، لا عن الانفتاح لأنّ الانفتاح يقتضي فكّ الإنسان لانغلاقه بنفسه للإطلال على «الآخر» ثقافة واقتصاداً وسياسية، أمّا أن تتكفّل تكنولوجيا الآخر، بفكّ واختراق انغلاق الإنسان للوصول إلى سريره، فالواجب الحديث آنئذ عن اقتحام تكنولوجي لا انفتاح بشري..

إنّ طرف المعادلة الموجب هنا هو التكنولوجيا، أمّا الإنسان

فهو الطّرف السّالب لذلك سيتمّ التفاعل أو المواجهة بينه وبين التكنولوجيا بما تحمله في ذاته هو..

إنّنا نعود لنقول بعد هذا أنّ الاقتناء الواسع للتكنولوجيا على المستوى الأوسع إنّما هو في دول الخليج بالنسبة للوطن العربي والإسلامي، وآنذاك فتمثّل هذه المنطقة ساحة المعركة المرتقبة بين التكنولوجيا والهوية..

obeikandl.com